

له ما باتوا يضررونه من حقد ومقت .

وإنه ليجزع ويستولى عليه الحنق إذ يرى الرايات في شيكاغو
منكسة في هامات السفن ، ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة
تلذع قلبه ، ويسمع النواقيس تجلجل في الجو في نفمة حزينة
كأنما أصبحت المدينة في مأتم شعبي وهو يحاول أن يخاطب الناس
وهم يرعدون في وجهه ويسلقونه بالسنة حداد ، حتى يرغموه على
الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظا كما امتلأ منهم كدا .

وينتهي به السير إلى سبرنجفيلد ولو كان يعلم الغيب لتحول
عنها ، ففي تلك المدينة سيأفل نجمه وسيمد ما بينه وبين غايته .
وكانت المدينة يوم وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت في موسم
سوق من أكبر أسواق الزراعة . ولقد خيل إليه أن له في وجود
هذا الجمع الحاشد فرصة ...

وكان حزب الهوجز يومئذ في الشمال في أخريات خطواته
إلى الفناء ؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه
هو الحزب الجمهوري ؛ وكان لتكوين هو الرجل الذي أنجحت
إليه أنظار أهل المدينة ليكون لسانهم في الحزب الجديد . لهذا
ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها ، لم يجدوا من هو أقدر
منه على مدافعة دوجلاس ؛ وهكذا التقي الرجلان من جديد في
عراك عنيف ولم يلتقيا منذ كانا نائبيين في مجلس المقاطعة

وقف دوجلاس يخاطب ، وكان وهو في سفر جرمه قزم
أو كالفزم ، مارداً جباراً برأسه الضخم ولسانه الذي لا يقف ،
ونشاطه الذي لا يفتر ، ودهاؤه الذي لن ينتزع عنه ، ومهارته التي
لا تنيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف ، والتوت مذهب الكلام
ولقد كان دوجلاس في الحق من أقوى الرجال في عصره
إن لم يكن أشد منهم جميعاً قوة ، وكان الحزب الديمقراطي يباهي
به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرمى الرئاسة إلا خطوات
مع أنه لم يكن قد خطا الأربعين بعد ...

أخذ يخاطب ويدافع عن رأيه في حماسة وكياسة وإنه ليشعر
أنه يطلق آخر سهم في كنانته ؛ وكان محور دفاعه أنه يعمل على
توطيد سلطة الشعب ؛ وكانت العبارات معسولة والحجج تأتي في
روح السامعين أن لا سبيل إلى رفضها إذ لم يكن ثمة من سبيل
إلى نقضها

وجاء دور لتكوين في اليوم التالي ، واحتشد الناس ليروا

ما عساه أن يقول في الرد على هذا الداهية ، ووقف ان الأحرار
يقابل الدهاء بالصراحة ، والمكر بالصدق ، والنقض بالإخلاص ،
والمراوغة باليقين ، والباطل بالحق ، والدليل الأعرج بالمنطق
الأبليج ، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل
كفاية ، واستمع الناس إليه ثلاث ساعات وبعض الساعة
ومنافسه يعض على نواجذه وينقم على تلك الأقدار التي ألقت به
بين برائن ابن الغابة ...

بدأ خطابه بقوله أنه لا يتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق ،
فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فإنه ليسره أن يرده لساعته إلى
الصواب . ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين
حين وحين ليوليه عن قصده ولبليس عليه الأمر حتى ضاق لتكوين
بتلك المقاطعة فصاح قائلاً : أيها السادة ! إنى لا أستطيع أن أنفق
وقتي في مساجلات ، وعلى ذلك فإني آخذ على نفسي المسؤولية
أن أحق الحق وحدي فأعني بذلك القاضي دوجلاس ضرورة
تلك التصحيحات العنيفة » ... وأخذ بعدها يتكلم والأبصار
شاخصة إليه والسكون شامل مع شدة ازدحام السكان ، والخطيب
المرئجل لا يعرف اضطراباً ولا اعوجاجاً ، يهدر كالسيل لا يصرقه
عائق عن وجهه ، وكأنما كان ينطق عن وحى ، فما سمعه الناس
من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين مثل هذه الابانة ؛
وهو في حركاته وإشاراته ونبرات صوته ، وفق توقيفاً ما شهد
الناس مثله من قبل

وفرغ من خطابه وهو في قلوب قومه أرفع قدراً وأكثر
عجة عما كان ومنافسه مبتس زائع البصر ، موزع الفؤاد بين
كلمات الاستحسان تنثر على صاحبه كإيثرائثره وكلمات الاستهجان
تصوب إليه كما تصوب السهام .. ونظر فإذا هو بما أدلى من
حجج كالمنكبوت اتخذت بيتاً ، ولم يبق في قلوب الناس من
أثر لما رده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة ، إذ لم
يترك له إبراهيم دليلاً إلا سقفه وأظهر للناس ما يقوم عليه من
بهرج وما يستتر وراءه من طلاء . وبهذه الخطبة فتح لتكوين
فصلاً جديداً في تاريخ حياته وقطع شوطاً كبيراً عوض عليه
ما فات من ركود ...

ومهما يكن من تفوقه ونباهة شأنه في هذه الخطبة ، فإننا
نستطيع أن نعود بالسبب إلى حد كبير — على صفاته الأساسية

التي فطر عليها ، وفي مقدمتها تبين ما يمرض له والنفاذ إلى جوهره
ثم الاستمانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول في يسر وبساطة
ومع توخي الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض في الحكمة
للدفاع ، هذا إلى لقائه عجيبه يميز بها في سرعة الصواب من الخطأ
والحق من الباطل ، وذهن منطقي كأنه الميزان الدقيق يحس قبل
أن يدرك أن هذا عليه مسحة الشك وذلك عليه نور اليقين

قال رد على دوجلاس قوله أن من الامتحان لأهل كنسكا
أن نمتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، « اني أسلم
أن المهاجر الى لناس وبناسكا جدير أن يحكم نفسه ولكني
أنكر عليه الحق في أن يحكم شخصا آخر بغير رضاء ذلك الشخص »
ولقد كانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهي تهدم ما بنى دوجلاس
من أساسه ولاندع لبدأ سلطة الأمة الذي نادى به أى قيمة .
وقال في رده على دوجلاس إذ يدعى أن الحكومة إنما أقيمت
لصالح البيض لاصالح الزنوج « اني أوافق على ذلك من حيث
الواقع في ذاته ، ولكني أرى في هذه الملاحظة التي ساقها القاضي
دوجلاس معنى هو عندي مفتاح تلك الفلطة الكبرى (ان كان
نمة من غلطة كهذه) التي فعلها في قرار بناسكا ؛ انما يدل على أن
التقاضى لا يقوم في ذهنه مؤثر حتى يريه أن الرجحى إنما هو انسان
وعلى ذلك فليست تقوم في رأسه فكرة عن ضرورة وجود المنصر
الخافي عند التشريع له ... »

وبعد الخطبة وقف دوجلاس ليرد ولكن مذاهب القول
التوت عليه وخاتمه بديته فجعل بينه وبين الناس موعدا في المساء
لا يخلفه ، وحل المساء وارتقب الناس ولكنهم لم يجدوا الخطيب ..
وبعد ذلك باثني عشر يوما ذهب لنكولن ليخطب في بلدة
أخرى هي بيوريا ؛ ولقد تبعه دوجلاس الى هناك لعله أن يظفر
هذه المرة . ولم يرجل لنكولن كما ارتجل في سيرنجفيلد بل قرأ من
أوراق ؛ ويشهد الذين سمعوه في المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم
شأنا وأبعد أثرا ؛ أجل كانت خطبته الثانية أحسن بناء وأحكم
نسجا وأقوى منطقا ولكنها لم تكن أكثر سحرا ...

ولقد بدأ دوجلاس في بيوريا كما بدأ في سيرنجفيلد واستمر
يخطب ساعات ثلاثا ، ورد لنكولن في المساء فاستغرق خطابه مثل
هذا الزمن . ومما جاء فيه قوله عن قرار بناسكا « ان هذا القرار
يمان الحياذ ولكن به يضر حماسة حقيقية لانتشار العبيد لا يسمنى
إلا أن أمقتها ، لا تنطوى عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح ،
وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهورى الذى نسوقه للعالم مثالا من

أثره الحق في الدنيا ، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيرا من
رجالنا الأخيار الى حرب صريحة ضد المبادئ الأساسية للحرية
المدنية ، وهم يوجهون انتقادهم الى اعلان الاستقلال ويصرون على
اعتقادهم أنه ليس تمت من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا وأنه ليس
إلا المصلحة الشخصية » وقال في معرض آخر : « ان مبدأ حكم
الشعب نفسه مبدأ صحيح ؛ هو مبدأ صحيح دون أدنى شك وهو
الى الأبد صحيح .. ولكن إذا كان الرجحى رجلا ، ألسنا — بقدر
ما في البدء من صحة — نرى أننا إذا حرمناه من أن يحكم نفسه
إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب ؟ حينما يحكم الرجل الأبيض
نفسه يكون ذلك مبدأ سيادة الشعب ، ولكنه حينما يحكم نفسه
ويحكم في الوقت ذاته رجلا آخر فإن ذلك يكون أكثر من سيادة
الشعب فهو الاستبداد ... ليس في الناس من يتوفر لديه الخير
ليحكم غيره دون رضاء ذلك الغير ، هذا هو المبدأ الأول والمرفا
الأمين للنظام الجمهورى الأمريكى » .

ذلك منطوق ابن الغابة وتلك آياته وهو الذى نشأ كما رأينا
عصاميا في أوسع معنى لتلك الكلمة ! إنما يصد الرجل عن طبع
ويترجم عن فطرة مثله في ذلك مثل غيره من أعلام البشر وقادة
القافلة في طريق الإنسانية ...

ينبع

الغنييف

توفيق الحكيم

في كتابه الجديد

عصفور من الشرق

أهو كتاب يدعو إلى التفاؤل أم إلى التشاؤم ؟
لا أحد يدري . إنما الذى لا شك فيه أنك
لا تنتهى من قراءته حتى تجد نفسك مضطرا
إلى التفكير في مسائل خطيرة وقد تنغير
آراؤك في أشياء كثيرة

اطلبه اليوم من المكتاب الشهيرة
ثمن النسخة ١٠ قروش مصرية